جامعة عبد الرحمن ميرة – بجاية
الجزائري
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها

مقياس: النثر الشعبي
ماستر 1 أدب جزائري
الدكتور: آية الله عاشوري

المحاضرة الخامسة:

الأسطورة

1. مفهوم الأسطورة:

1.1 لغة:

ورد في لسان العرب: «سطر: السَّطْرُ والسَّطَرُ: الصَّفُّ مِنَ الْكِتَابِ وَالشَّجَرِ وَالنَّخْلِ وَنَحْوِهَا؛ قَالَ جَرِيرٍ:

مَنْ شاءَ بايَعْتُه مَالِي وخُلْعَتَه مَا يَكْمُلُ التِّيمُ فِي ديوانِهِمْ سَطَرا

والجمعُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ أَسْطُرٌ وأَسْطارٌ وأَساطِيرُ؛ عَنِ اللِّحْيَانِيِّ، وسُطورٌ. وَيُقَالُ: بَنى سَطْراً وغَرَسَ سَطْراً. والسَّطْرُ: الخَطُّ وَالْكِتَابَةُ، وَهُوَ فِي الأَصل مَصْدَرٌ. اللَّيْثُ: يُقَالُ سَطْرٌ من كُتُبٍ وسَطْرٌ مَنْ شَجَرٍ مَعْزُولِينَ وَنَحْوُ ذَلِكَ؛ وأَنشد:

إِني وأَسْطارٍ سُطِرْنَ سَطْرا لقائلٌ: يَا نَصْرُ نَصْراً نَصْرَا

وَقَالَ الزَّجَّاجُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1]؛ خَبَرٌ لابتداء مَحْذُوفٌ، الْمَعْنَى وَقَالُوا الَّذِي جَاءَ بِهِ أَساطير الأولين، مَعْنَاهُ سَطَّرَهُ الأَوَّلون، وواحدُ الأَساطير أُسْطُورَةٌ، كَمَا قَالُوا أُحْدُوثَةٌ وأَحاديث.

وسَطَرَ يَسْطُرُ إِذا كَتَبَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1)﴾[2]؛ أَي وَمَا تَكْتُبُ الْمَلَائِكَةُ؛ وَقَدْ سَطَرَ الكتابَ يَسْطُرُه سَطْراً وسَطَّرَه واسْتَطَرَه. وَفِي التَّنْزِيلِ: وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ.

---

[1] سورة الفرقان، الآية: 5.

[2] سورة القلم، الآية: 1.

وسَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً: كَتَبَ، واسْتَطَرَ مِثْلُهُ. قَالَ أَبو سَعِيدٍ الضَّرِيرُ: سَمِعْتُ أَعرابيّاً فَصِيحًا يقول: أَسْطَرَ فلانٌ اسمي أَي تَجاوَزَ السَّطْرَ الَّذِي فِيهِ اسْمِي، فإِذا كَتَبَهُ قِيلَ: سَطَرَهُ. وَيُقَالُ: سَطَرَ فلانٌ فُلَانًا بِالسَّيْفِ سَطْراً إِذا قَطَعَهُ بِهِ كَأَنَّهُ سَطْرٌ مَسْطُورٌ؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِسَيْفِ القَصَّابِ: ساطُورٌ. الْفَرَّاءُ: يقال للقصاب ساطِرٌ وسَطَّارٌ وشَطَّابٌ ومُشَقِّصٌ ولَحَّامٌ وقُدَارٌ وجَزَّارٌ. وقال ابن بُزُرج: يَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذا أَخطأَ فَكَنَوْا عَنْ خَطَئِهِ: أَسْطَرَ فلانٌ اليومَ، وَهُوَ الإِسْطارُ بِمَعْنَى الإِخْطاءِ. قَالَ الأَزهري: هُوَ مَا حَكَاهُ الضَّرِيرُ عَنِ الأَعرابي أَسْطَرَ اسْمِي أَي جَاوَزَ السَّطْرَ الَّذِي هو فيه. والأَساطِيرُ: الأَباطِيلُ. والأَساطِيرُ: أَحاديثُ لَا نِظَامَ لَهَا، وَاحِدَتُهَا إِسْطارٌ وإِسْطارَةٌ، بالكسر، وأُسْطِيرٌ وأُسْطِيرَةٌ وأُسْطُورٌ وأُسْطُورَةٌ، بِالضَّمِّ. وَقَالَ قَوْمٌ: أَساطِيرُ جمعُ أَسْطارٍ وأَسْطارٌ جمعُ سَطْرٍ. وَقَالَ أَبو عُبَيْدَةَ: جُمِعَ سَطْرٌ عَلَى أَسْطُرٍ ثُمَّ جُمِعَ أَسْطُرٌ عَلَى أَساطير، وَقَالَ أَبو الْحَسَنِ: لَا وَاحِدَ لَهُ، وَقَالَ اللحياني: واحد الأساطير أُسطورة وأُسطير وأُسطيرة إِلى الْعَشْرَةِ. قَالَ: وَيُقَالُ سَطْرٌ وَيُجْمَعُ إِلى الْعَشْرَةِ أَسْطاراً، ثُمَّ أَساطيرُ جمعُ الجمعِ. وسَطَّرَها: أَلَّفَها. وسَطَّرَ عَلَيْنَا: أَتانا بالأَساطِيرِ. اللَّيْثُ: يُقَالُ سَطَّرَ فلانٌ عَلَيْنَا يُسَطِّرُ إِذا جَاءَ بأَحاديث تُشْبِهُ الْبَاطِلَ. يُقَالُ: هُوَ يُسَطِّرُ مَا لَا أَصل لَهُ أَي يُؤَلِّفُ. وَفِي حَدِيثِ الْحَسَنِ: سأَله الأَشعث عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ إِنك ما تُسَيْطِرُ عَلَيَّ بِشَيْءٍ، أَي مَا تُرَوِّجُ. يُقَالُ: سَطَّرَ فلانٌ عَلَى فُلَانٍ إِذا زَخْرَفَ لَهُ الأَقاويلَ ونَمَّقَها، وَتِلْكَ الأَقاويلُ الأَساطِيرُ والسُّطُرُ.»[3]

يقول الفراهيدي: «يقال: سَطَّرَ فلانٌ علينا تسطيراً إذا جاء بأحاديثَ تُشبهِ الباطِلَ. والواحد من الأساطير إِسطارةٌ وأُسطورةٌ، (وهي) أحاديثُ لا نظام لها بشيء. ويَسْطرُ معناه يُؤَلِّف ولا أصل له، [وسَطرَ يَسطُرُ اذا كتَبَ]، وقال الله جل وعز: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1)﴾[4]، أي وما يكتبُ الملائكة.»[5]

أما الزمخشري فيقول: «س ط ر: سطر واستطر: كتب. وكتب سطراً من كتابه وسطراً وأسطرا وسطورا وأسطاراً، وهذه أسطورة من أساطير الأولين: مما سطّروا من أعاجيب أحاديثهم، وسطر علينا فلان: قص علينا من أساطيرهم.»[6]

---

[3] ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص 363 وما بعدها.

[4] سورة القلم، الآية: 1.

[5] الفراهيدي، العين، ج7، ص 210.

[6] الزمخشري، أساس البلاغة، ج1،ص 454.

وأما عن مدلولها في المعجم الوسيط فقد ورد:«(سطر): الكتاب سطرا كتبه وَفُلَانًا صرعه وَالشَّيْء بِالسَّيْفِ قطعه.

(أسطر) الشَّيْء أَخطَأ فِي قِرَاءَته وَيُقَال أسطر اسْمِي تجَاوز السطر الَّذِي هُوَ فِيهِ.

(سطر) الْكتاب سطره والورقة رسم فِيهَا خُطُوطًا بالمسطرة والعبارة ألفها وَيُقَال سطر الأكاذيب وسطر علينا قصّ علينا الأساطير.

(استطر) الْكتاب سطره.

(الأساطير) الأباطيل وَالْأَحَادِيث العجيبة وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز (إِن هَذَا إِلَّا أساطير الْأَوَّلين)[7]، وَاحِدهَا إسطار وإسطير وأسطور وبالهاء فِي الثَّلَاثَة.»[8]

2.1 اصطلاحا:

مفهوم الأسطورة اصطلاحا جاء على شكل أشتات متفرقة لا يجمعها ضابط يوحد أفكارها. وعرضها كان عرضاً طارئاً، خال من التحديد والتدقيق.

يعد مصطلح الأسطورة من المصطلحات الفضفاضة التي لم يتوصل الباحثون بعد إلى تحديد مضمونها فهو يتسع لكثير من الدلالات، ويختلط بالعديد من الأنساق المعرفية كالخرافة، الملحمة والحكاية الشعبية، لذلك كان تحديد تعريف دقيق له يقتضي بعض التريث، لأنه يضع بين أيدينا صورة للأسطورة متداخلة مع غيرها من الأنساق المعرفية التي تطورت معها ونمت، مما يحتم علينا أن نقتطف من مادة هذه الأشكال ما يصلح أن يكون دالا عليها في خصائصها، دون التورط في متاهاتها وتفصيلاتها، لنصل إلى تحديد الفروقات التي تفصل بينها وبين الأسطورة. وما دام استقراؤها

---

[7] قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25)﴾ [سورة الأنعام، الآية: 25]

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31)﴾ [سورة الأنفال، الآية: 31]

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)﴾ [سورة المؤمنون، الآيات: 81-83]

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)﴾ [سورة النمل، الآيتان: 67،68]

[8] إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، ص 429.

سيضعنا أمام خيارات صعبة تتمثل في طريقة استكتاب هذا التراث الضخم، وتلك الأنساق المعرفية المتشعبة بكيفية تخدم ما نبتغيه من كشف لخصائص الأسطورة، وعزل لما سواها عنها، فقد اختار البحث أكثر هذه الأنساق قربا من الأسطورة وشبها بها، أهمل ما سوى ذلك[9].

ويعرفها مرسيا إلياد: «الأسطورة تروي تاريخا مقدسا، تروي حدثا جرى في الزمن الأول (البدائي) وهو زمن البدايات،و بعبارة أخرى تحكي الأسطورة كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود، بفضل مآثر اجترحتها الكائنات العليا (تأثير القوى الغيبية) سواءاً كانت هذه الحقيقة مطلقة أو كانت حقيقة كونية، أو كانت مجرد حقيقة جزئية، لكنها تبقى دائما قصة متعلقة بعملية الخلق، تحكي لنا كيف كان إنتاج شيء كيف بدأ وجوده، فالأسطورة لا تتحدث إلا عما قد حدث فعلا و ظهر جليا.»[10]

وذهبت نبيلة إبراهيم إلى القول: «يمكننا القول بإيجاز إن الأسطورة محاولة لفهم الكون بظواهر متعددة، أو هي تفسير له إنها نتاج وليد الخيال ولكنها لا تخلو من منطق معين ومن فلسفة أولية تطور عنها العلم والفلسفة فيما بعد)، ومن هنا يمكننا القول بأن الأسطورة وسيلة حاول الإنسان عن طريقها أن يضفي على تجربته الحياتية طابعا فكريا وأن يخلع على حقائق الحياة العادية معناً فلسفياً»[11].

ويعرفها فاروق خورشيد في قوله: «الأسطورة كلمة يحيطها سحر خاص... يعطي لها من الامتداد ما لا يتوفر للكثير من الكلمات في أية لغة من اللغات، كما أن الأسطورة توحي بالحلم حيث يمتزج بالحقيقة، وبالخيال وهو يثري واقع الحياة بكل ما يغلقه ويطوله وتهويم الطموح الإنساني نحو المعرفة ونحو المجهول.»[12]

---

[9] المرجع السابق، ص 6.

[10] انظر، ميرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، ص 100.

[11] نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 23 وما بعدها.

[12] فاروق خورشيد، الأسطورة عند العرب، ص2.

أما طلال حرب فيعتبرها: «نوعا من الأنواع الأدبية التي عرفت منذ الأزل البعيد أي منذ بدأ الفكر البدائي بتأمل هذا الكون وما فيه، إنها: "التعبير عن الحقيقة بلغة المجاز."»[13]

2. الأسطورة في القرآن الكريم:

وردت "الأسطورة" في القرآن الكريم في تسع موارد متفرقة، وهو تكرار يستحق بذل المجهود لدراسة واستخلاص المعاني المخبوءة فيه، ولنا أن نسأل: ما موضوع الآيات التي ذكرت الأساطير؟ ولماذا؟ وما هي العناصر المشتركة في الآيات كلها؟ وهل يمكن فهم شيء عن مضامين الأساطير من خلال فهمنا للآيات؟ ولماذا لم تأت لفظة الأساطير لوحدها بل جاءت في الآيات كلها بـ: "أساطير الأولين"؟ [14]

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25)﴾[15].

في سورة الأنعام تدعو الآيات الناس إلى التوحيد بناءا على دلائل وبراهين عقلية، فالله خالق السماوات والأرض جاعل الظلمات والنور، خالق الإنسان من طين هو المستحق للعبادة الخالصة والرسول هنا يذكرهم بالحقيقة كاملة، حقيقة الوجود وغايته ومنتهاه بدلائل سمعية عقلية وبشواهد وآثار يرونها حولهم.[16]

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)﴾[17].

---

[13] طلال حرب، أولية النص، ص93.

[14] جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، ص111.

[15] سورة الأنعام، الآية: 25.

[16] جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، ص 112.

[17] سورة الأنفال، الآيات: 31-33.

سورة الأنفال سورة مدنية تتحدث عن أول المواجهات بين المؤمنين والمشركين في غزوة بدر وتتناول أسباب هذه المواجهة، التي كانت نتيجة طبيعية لاستمرار هؤلاء في الدخول في النفق المظلم بسبب عتوهم وتحديهم للحق، ورفضهم الاتعاظ بسنن الأولين وقبول مبادئ دعوة جديدة تخالف معتقداتهم، ولقد كان الرسول(صلى الله عليه وسلم) يتلو عليهم الآيات، والذين كفروا كانوا يستمعون إليها، وحسب السورة فإن الآيات التي كانت تتلى عليهم في مكة كانت تتضمن دعوتهم إلى التوحيد ونفي الشرك، والامتناع عن صد المسلمين عن المسجد الحرام فهم ليسوا ورثة المسجد الحرام، لأنه بيت الموحدين على وجه الأرض. [18]

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24)﴾[19].

حينما يسأل المؤمنون ماذا انزل ربكم، يقولون خيرا، أما حين يسأل المستكبرون ماذا أنزل ربكم فيجيبون أساطير الأولين، بالرجوع إلى بداية السورة نجد السورة تستهل بأن الله ينزل الروح أي الوحي وهو المادة المنزلة على رسوله بما تتضمنه من أخبار خلق الكون وتنظيم الوجود وتوجيهات وأوامر ونواهي وتذكير ووعيد وقصص وأحوال الأمم السابقة، ولب الوحي نبذ الشرك والدعوة للتوحيد وإخلاص العبودية لله، والسورة تدعو إلى ذلك وتتغنى بجمال خلقه وروعة إبداعه في خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر والنجوم والبحر، وتسخير الأنعام وتنظيم الأرزاق، هذا الحديث يذكر المستكبرين بأساطير الأولين تماما.[20]

قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)﴾[21].

المشركون اعترفوا بأن التوحيد والبعث والوعود الإلهية موجودة في أساطير الأولين، ولكنهم لا يأبهون بها ويعدونها من قبيل الخرافات(تماما كحال من ساوى بين الأسطورة والخرافة) والآيات بإعراضها عن الرد عليهم تقرهم على مقالتهم لأنها ما خالفت وجه الحقيقة، فالتوحيد ونبذ الشرك

---

[18] جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، ص 114.

[19] سورة النحل، الآية: 24.

[20] جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، ص 115.

[21] سورة المؤمنون، الآيات: 81-83.

مفاهيم موجودة في الأساطير، والأحاديث عن عوالم سفلية، وجنة علوية ويوم حساب موجود أيضا في الأساطير والآيات هنا تنقل مقالتهم وتستهزئ بعقولهم التي حكمت على القضايا العقلية بالبطلان. [22]

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6)﴾[23]

الأمر صار بينا؛ فلو جمعنا مقولاتهم في الآيات الأخرى وربطناها مع هذه الآية، لخلصنا بأنهم الأساس قد كفروا بالتنزيل، مع إيمانهم بأن نفي الشرك في الألوهية والخلق، وقضايا الموت والبعث والنشور موجودة في الأساطير وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قام بافتراء النبوة ونسبة القرآن إلى الله، وهو في الحقيقة أساطير الأولين اكتتبها وأمليت عليه.[24]

قال تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)﴾[25].

تتحدث السورة هنا عن نفي الآلهة مع الله وتدعو إلى العبودية لخالق ومعيده ورازق الحياة في الأرض هو العلم بالآخرة والإيمان بالبعث، هو العلم بالآخرة والإيمان بالبعث، هذا العلم قد تضائل بل تبدل من حالة الجحود النكران، تظهر تلك الحالة صريحة في رد الذين كفروا بأن هذه أقوال ووعود موجودة في أساطير الأولين، بالنسبة لهم لم يتبين صدقها ولم تثبت من قبل. بل هي مزاعم كمزاعم الرسول فهي تتطابق مع قوله في المضمون، وخاصة قضية الوعد بالبعث ثم الحساب، وما تتطلبه من قضايا الإقرار بالخالق وتوحيده وخلوص العبودية له، ونصرة رسله والكف عن مساخطه. [26]

---

[22] جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، ص 116.

[23] سورة الفرقان، الآيات: 4-6.

[24] جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، ص 116.

[25] سورة النمل، الآيات: 66-68.

[26] جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، ص 117.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17)﴾[27].

يختلف الموقف هنا، فطرفا الحوار هما أبوان صالحان مع ابنهما المشرك، والدعوة من الأبوين لولدهما بالإيمان بالله وبالبعث والحساب، فيرد الابن بأنه غير مستعد للإيمان بهذه الخرافات، التي يسمع عن وجودها في أساطي الأولين، الآية تدل أن"أساطير الأولين" معروفة عند الجميع جيلا بعد جيل، وقد احتفظت الأجيال بالتعاليم الربانية في صورة أساطير، وأمها قضية الإيمان بالله والاستعداد للبعث في الحساب، في كل مرة يسمع الابن المشرك مثل هذه الدعوات يؤكد بأن "هذا" أي مطالبة الإيمان بهذه القضايا موجودة في كلام الأولين، وهو كلام قديم بلى على الزمن الجديد، كلام ليس في مستواه وهو يترفع عن تصديقه.[28]

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) ﴾[29].

تبدأ سورة القلم بالقسم بـ"ما يسطرون"، فقد أقسم سبحانه بهذا التسطير الذي يُسطر القوانين والحقائق لكل ما في الوجود، تماما كما يسطر أعمال الإنسان وأقواله ليُحاسبه عليها، ترد السورة في مستهلها على اتهامهم الرسول بالجنون، وحسب آيات القرآن فإنه لا يقال لأي رسول"مجنون" إلا في قضية واحدة حصرا هي كونه يدعو إلى جعل الآلهة إلاها واحدا ونفي الأنداد والأرباب مع الله، أي إحالة كل المظاهر الطبيعية الفاعلة فيهم، والمتناقضة ظاهرا في تخصصاتها وتفرعاتها إلى رب وإله واحد.[30]

---

[27] سورة الأحقاف، الآية: 17.

[28] جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، ص 117.

[29] سورة القلم، الآيات: 10-15.

[30] جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، ص 118.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13)﴾[31].

إن ما تدعو إليه آيات القرآن المتلوة، بالإضافة إلى الدعوة إلى وحدانية الله، والاستعداد للرجوع إليه للجزاء في يوم الدين للفصل بالحساب واستلام الجزاء، فإنها توجه إشارات خاصة لوجهاء القوم وكبرائهم بالامتناع عن الاعتداء والآثام، حالة التذكير التي فرضتها الدعوة المحمدية بقوة بهذه المعاني والمضامين تجعل المستكبرين والمكذبين يردون بمزيد من الاستكبار والتكذيب، فيقولون بأنهم يرون الأمر واضحا جليا، فكل ذلك موجود فيما سطره الأولون من ملاحم وأشعار(أساطير) ولا جديد مقنع، وتفسير ما يحدث ببساطة أن هذا الرجل يدعى أنه رسول من الله بكلام استله من أساطير أولئك الأقدمين.[32]

3. نشأتها:

يعد البحث عن تاريخ أو كيفية نشأة الأسطورة ضربا من المستحيل نظرا لاقتران نشأتها بالمحاولات الأولى لتفسير الظواهر الطبيعية من كسوف، خسوف وزلزال وأعاصير والتي أوحت جميعها للإنسان إيحاءات كثيرة خلقت لديه مماسا حسيا–قلقا–بين تلك الظواهر الخارقة وبين حاجته لتأليف أسطورته المفسرة لها.

والسبب السابق الذي يمنع من معرفة نشأة الأسطورة هو نفسه الذي يجعل منها ظاهرة عالمية، فالأسطورة ظاهرة مشتركة لدى جميع الأمم في مراحل نموها الأولى، إلا أنها ورغم عالميتها تندرج في عدة أنماط تختلف فيما بينها في الهدف والسبب والصيرورة، فهناك أسطورة الطقس العادة والتقليد Ritual myth، وأسطورة الأصل (أصل تكوين الأشياء) Gensis myth، وأسطورة العبادة Cult myth، وأسطورة البطل الشعبي Folk hero myth، وأسطورة البعث (القائلة ببعث الإنسان بعد موته) Resurrection myth...

---

[31] سورة المطففين، الآيات: 10-13.

[32] جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، ص 119 وما بعدها.

أما في بلاد الشرق (الكنعانيين و المصريين فمن جملة الأنماط الأسطورية التي كانت سائدة، يتميز نمط أسطورة البعث Resurrection (الحياة بعد الموت)، وربما يرجع هذا التمييز إلى أن الخيال الشرقي كان–ولا يزال– أكثر خصوبة واتساعا من نظيره الغربي، أو ربما لان حياة واحدة لا تكفيهم(كما عند الفراعنة مثلا) ! والأمثلة على تلك الأنماط الكثيرة، وسيتم سردها في توزيع متتال ...

ونحن إذا ما عدنا إلى تعاريف المختصين للأسطورة نجدها تتكلم عنها كتفسير لظواهر الحياة وأصل موجوداتها–كأسطورة نرجس مثلا– أو تفسير لمعتقداتهم إزاء ظواهر سماوية إلهية–كأساطير البعث والقيامة– وبمعنى آخر نجد نوعين من الأساطير من حيث الهدف، نوع يهتم بطبيعة الحياة على الأرض، ونوع يهتم بطبيعة الحياة في السماء، وبمعنى آخر: نوع يهتم بالمعلومات وآخر يهتم بالدين.[33]

4. مميزاتها:

تتميز الأسطورة الشعبية بعدة مميزات منها[34]:

* من حيث الشكل الأسطورة هي قصة، تحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة، عقدة وشخصيات، وما إليها. وغالبا ما تأتي صياغتها في قالب شعري يساعد على ترتيلها في المناسبات الطقسية وتداولها شفاهة كما يزودها بسلطان على العواطف، لا يتمتع به النص النثري.

* يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة. فالأسطورة السومرية "هبوط إنانا إلى العالم السفلي" والتي دونت كتابة خلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، ثم استمرت صياغتها الأكادية المطابقة تقريبا للأصل السومري إلى أواسط الألف الأول قبل الميلاد. غير أن خصيصة الثبات هذه لا تغتب الجمود أو التحجر. لان الفكر الأسطوري يتابع على الدوام خلق أساطير جديدة، ولا يجد غضاضة في التخلي عن تلك الأساطير التي فقدت طاقتها الإيحائية، أو تعديلها.

---

[33] انظر، غزوان أحمد علي، الأسطورة بين الدين والفكر والشعر المعاصر، ص1 وما بعدها.

[34] انظر، فراس سواح، الأسطورة والمعنى (دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية)، ص.ص 15.12.

* لا يعرف للأسطورة مؤلف معين، لأنها ليست نتاج خيال فردي، بل ظاهرة جماعية يخلقها الخيال المشترك للجماعة وعواطفها وتأملاتها. ولا تمنع هذه الخصيصة الجمعية للأسطورة من خضوعها لتأثير شخصيات روحية متفوقة، تطبع أساطير الجماعة بطابعها وتحدث انعطافا دينيا جذريا في بعض الأحيان.

* تلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية في الأسطورة، فإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث كان ظهوره مكملا لا رئيسيا.

* تتميز الموضوعات التي تدور حولها الأسطورة بالجدية والشمولية وذلك مثل التكوين والأصول، الموت والعالم الآخر، ومعنى الحياة وسر الوجود، وما إلى ذلك من مسائل التقطتها الفلسفة فيما بعد.

إنهم الأسطورة والفلسفة واحد، ولكنهما تختلفان في طريقة التناول والتعبير، فبينما تلجأ الفلسفة إلى المحاكمة العقلية وتستخدم المفاهيم الذهنية كأدوات لها، فإن الأسطورة تلجأ إلى الخيال العاطفة والترميز، وتستخدم الصور الحية المتحركة.

* تجري أحداث الأسطورة في زمن مقدس هو غير الزمن الحالي. ومع ذلك فإن مضامينها أكثر صدقا وحقيقة، بالنسبة للمؤمن، من مضامين الروايات التاريخية. فقد يشك هذا المؤمن بأي رواية تاريخية، ويعطي لنفسه الحق في تصديقها أو تكذيبها، ولكن الشك لا يتطرق إلى نفسه إذا كان بابليا، بأن "الإله مردوخ " فقد خلق الكون من أشلاء تنين العماء البدئي، وبأن "الإله بعل" قد وطد نظام العالم بعدما صرع "الإله يم" وروض المياه الأولى إذا كان كنعانيا. ويستتبع تاريخية الحدث الأسطوري، أن رسالته غير زمنية وغير مرتبطة بزمن ما، إنها رسالة سرمدية خالدة تنطق من وراء تقلبات الزمن الإنساني. إن عدم تداخل الزمن الأسطوري بالزمن الحالي يجعل من الحدث الأسطوري حدثا مائلا أبداً.

فالأسطورة لا تقص عما جرى في الماضي وانتهى، بل عن أمر ماثل أبدا لا يتحول إلى ماض. ففعل الخلق الذي تم في الأزمنة المقدسة يتجدد في كل عام ويجدد معه الكون حياة والإنسان. وإله الخصب الذي قتل ثم بُعث إلى الحياة، موجود على الدوام في دورة الطبيعة تتابع الفصول وصراع الإله

بعل مع الحية"لوتان" ذات الرؤوس السبعة، هو صراع دائم بين قوى الخير والحياة وقوى الشر والموت. وخلق الإنسان من تربة الأرض ممزوجة بدم إله قتيل، هو تأسيس لفكرة الطبيعة المزدوجة وتكوينه من عنصر مادي وآخر روحاني. وحتى عندما تتحدث الأسطورة عن حدث محدد في تاريخ الناس، فإن مرامي هذا الحدث تكون خارج الزمن وتتخذ صفة الحضور الدائم.

ونموذج هذا النوع أسطورة الطوفان الرافدية، فرغم أن السوريين قد اتخذوا من حادثة الطوفان التي أبلغت عنها الأسطورة، نقطة في التاريخ يؤرخون بها لما حدث قبلها وما حدث بعدها، إلا أن فحوى الأسطورة لم يكن تاريخا بالنسبة إليهم. لأن الطوفان الذي دمر الأرض من حولهم مرة، هو نذير دائم بسطوة القدر وتحذير من الغضب الإلهي البعيد عن إفهام البشر، ومن الاطمئنان إلى استمرارية الشرط الإنساني وثبات الأحوال.

* تربط الأسطورة بنظام ديني معين وتعمل على توضيح معتقداته وتدخل في صلب طقوسه. وهي تفقد كل مقوماتها كأسطورة إذا انهار هذا النظام الديني، وتتحول إلى حكاية دنيوية تنتمي إلى نوع آخر من الأنواع الشبيهة بالأسطورة.

* تتمتع الأسطورة بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم. إن السطوة التي تمتعت بها الأسطورة في الماضي، لا يدانيها سوى سطوة العلم في العصر الحديث. فنحن اليوم نؤمن بوجود الجراثيم وبقدرتها على تسبيب المرض، وبأن المادة مؤلفة من جزئيات وذرات ذات تركيب معين، وبأن الكون مؤلف من مليارات المجردات ...الخ، وذلك لأن العلم قد قال لنا ذلك. وفي الماضي آمن الإنسان القديم بكل العوالم التي نقلتها له الأسطورة، مثلما نؤمن اليوم وبدون نقاش بما ينقله لنا العلم والعلماء وكان الكفر بمضامينها كفرا بكل القيم التي تنشد الفرد إلى جماعته وثقافته وفقدانا للتوجه السليم في الحياة.

* من حيث الشكل هي قصة مكتملة لها بداية ووسط ونهاية وشخصيات وحبكة وعقدة وما إلى ذلك، ترد نثرا وغالبا ما تصاغ في قالب شعري ليسهل خفضها وترتيلها في المناسبات الدينية.

* ما تنقله الأسطورة من معاني لا تشبه الواقع أو المعلومات الدقيقة غنه إيحاء لا إملاء ، وإشارة وتضمين لا تعليم وشرح وتلقين.

5. أنواعها:

هناك عدة أنواع من الأساطير، فقد قسمها طلال الحرب إلى ستة أنواع:[35]

* **أسطورة التكوين:** تبحث هذه الأسطورة في أكثر المسائل غموضا وصعوبة، تنظر في الكون وحدوثه، وتحاول توضيح بدء الحياة وما مرت به من مراحل حتى اكتملت في النبات والحيوان والإنسان. ونعطي مثالا على ذلك-أسطورة التكوين السومرية-.

* **الأسطورة الطقوسية:** هذه الأسطورة لم تكن قصة تروي فحسب، بل كانت تتضمن طقوسا تمثل وتعكس الحالة الاجتماعية في عصرها. وقد ذهب "فريزر" إلى أن "الأسطورة قد استمدت من الطقوس، فبعد مرور زمن طويل على ممارسة طقس معين وفقدان الاتصال مع الأجيال التي أسسته يبدو الطقس خاليا من المعنى ومن السبب والغاية. وتخلق الحاجة لإعطاء تفسير وتبرير". لكن بعض الأساطير وصلت إلينا مع طقوسها، وما كان يواكبها من احتفالات "كأسطورة تموز" أو "أدونيس" وهو أحد الآلهة الذين رمزوا إلى القوى المنتجة في الطبيعة، وقد عد روح الحقل ويوائم موته وبعثه تبدل الفصول أو تواري الحياة النباتية في الشتاء، وظهورها في الربيع، فكان الناس يحتفلون به كل عام و يندبونه وينحتون عليه، وكانوا يحملون تماثيله في شكل جثمان ميت ويشيعونها للدفن ثم يلقون بها في البحر أو النهر، وفي بعض الأماكن يحتفلون ببعثه في اليوم التالي فبكاء الناس على"أدونيس" هو بكائهم على ذهاب الخصوبة وحلول القحط والجذب، واحتفالهم ببعثه وحياته من جديد هو صورة لأملهم بعودة الخصب إلى أرضهم.

* **الأسطورة التعليلية:** لما كان الإنسان البدائي يمتاز بالنزعة الإحيائية، فقد علل الكثير من الظواهر انطلاقا من مذهبه هذا، فالعرب الذين رأوا في الكواكب أزواجا عللوا مواقع بعضها فقالوا إن سهيلا والشعرى كانا زوجيف، فانحدر "سهيل" فصار يمانيا، فاتبعه "الشعرى" العبور، فعبرت المجرة فسميت "العبور"، وأقامت "الغميضاء" فبكت لفقد "سهيل" حتى غمضت عيناها فسميت غميضاء لأنها أخفى من الأخرى.

---

[35] انظر، طلال الحرب، أولية النص (نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي)، ص.ص 96.94.

* **الأسطورة الرمزية:** تشتمل بعض الأساطير على بنية رمزية، أو بالأحرى يمكن قراءته قراءة رمزية. فالأسطورة منطقها الرمزي الذي تتعامل به مع معطيات الفكر إنها مثل الشعر نوع من الحقيقة أو معادل للحقيقة وليس منافسا للحقيقة العلمية أو التاريخية بل رافدا لها ومن أمثلة الأسطورة الرمزية نجد أسطورة "قدموس وأوروبا"

* **أساطير الآلهة:** تمتلئ الأساطير بقصص الآلهة، وهي قصص متنوعة وغنية فتارة نجد صراعا هائلا بين الآلهة"كصراع إيزيس وأوزوريس" مع ست في الأساطير الفرعونية، وصراع "أنانا و اريشكيجال" في الميثولوجية السومرية فطورا قصص حب مؤلهة كقصص "زوس" في الميثولوجية اليونانية أو" جوبيتر في الميثولوجية الرومانية ".

* **الأساطير البطولية:** تطالعنا في الأساطير مجموعة من الأبطال الخارقين الذين اضطلعوا بمهمات صعبة وأحيانا مستحيلة لتحقيق هدف يفوق القدرة البشرية أحيانا، أو لقيادة قبائلهم أو شعوبهم إلى محطة الأمان.

ولعل "جلجامش (Gilgamish) أقدم هؤلاء الأبطال الأسطوريين، وفي تراثنا العربي نستطيع أن نقول إن "سيف ذي يزن" و"عنترة بن شداد" قد امتلكا خصائص أسطورية مع الزمن وتداول أخبارها فإذا هما يمتازان بقوة هائلة وعطف الآلهة وتسخير القوى الغيبية ليحقق قيادة قبيلتها إلى النصر.

أما نبيلة إبراهيم فقد قسمت الأساطير إلى ستة أنواع: [36]

* **الأسطورة الكونية:** إن الرأي القائل الذي ينكر كل الإنكار أن يكون الدافع وراء نشأة الأساطير الأولى هو التأمل في نظام الكون وراء نشأة الأساطير الأولى هو التأمل في نظام الكون ومحاولة تفسيره، حيث إن الإنسان القديم كان عاجزا عن وجهة أصحاب هذا الرأي، عن النظرة التأملية في نظام الكون وعندما حكى الإنسان لنفسه قصة الظواهر الكونية لم يكن يود أن يقول أكثر مما قال في الأسطورة فما قاله في شكل حكاية، هو بعينه الحقيقة التي أحسن بها لا أكثر و لا أقل. ويمكننا أن نقدم أسطورة" أزوزيس و إيزيس" المصرية مثالا لهذا النوع.

---

[36] انظر، نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص.ص 55.15.

* **الأسطورة التعليلية:** وقد تكون الأسطورة التعليلية نمطا من أنماط الأساطير الكونية إذا حاولت أن تعلل ظاهرة كونية وقد تكون نمطا قصصيا آخر، فالإنسان لا يكف عن التعليل والتفسير طوال مدة بقائه على سطح الأرض.

* **الأسطورة الحضارية:** وإذا سلمنا بادئ ذي بدء الإنسان من مراحل حضارية مختلفة ابتداء من العصر البدائي أو الهمجي إلى أن اصطنع لحياته شكلا منظما ماديا واجتماعيا، فإنه لا بد أن يكون قد عبر عن هذا التغيير في أساطيره. والأسطورة الحضارية هي تلك التي تكشف عن صراع الإنسان مع الحياة لإصراره على الانتقال من المرحلة الطبيعية إلى المرحلة الحضارية.

* **الأسطورة الرمزية:** الإنسان القديم كان ينظر إلى الرمز في تلك الأساطير السالفة بوصفة حقيقية، ولكن الإنسان عندما نما وعيه بعد ذلك أصبح ينظر إلى الشخوص الأسطورية نظرة يساورها الشك أي أنه لم يعد يسلم بنظرة الإنسان السابق لها، ومعناه أنه بدأ يوظف تلك الشخوص بدرجة ما على نحو رمزي وهذا ما نعنيه هنا بالأسطورة الرمزية، ومعظم الأساطير الإغريقية المتأخرة يمثل هذا الصراع.

* **أسطورة البطل الإله:** كما حسمت بعض الأساطير حق الإنسان في مواهب محددة يستطيع بها أن يثري عالمه حسمت أساطير أخرى حق الآلهة فيما لا يجوز للإنسان أن يدعيه لنفسه من حقوقها، وهذا الإنسان الذي يجرؤ على أن يكون بطلا ذا صفات معينة هو الإنسان المؤله الذي يمثله "جلجامش" من ملحمته الشهيرة باسمه أروع تمثيل.

* **أساطير الأخيار والأشرار:** تبحث هذه الأساطير عن الخير والشر في الإنسان ذاته كما أن الإنسان الخير في أسطورة الأخيار إنسان واقعي وهو يتميز عن غيره من الناس بأعماله التي تتسم بالفضيلة والبطولة في آن واحد ومن شأن الأسطورة في هذه الحالة أن تجسد فيه الخير بحيث يصبح نموذجا يحتذى به.

6. مناهج دراستها:

حسب تعدد المدارس من (يوهيمر) وحتى (مالينوفسكي) إلى (ليفي ستروس)، تقوم على مبادئ ثلاثة:

* أن الأسطورة تصف حقائق تاريخية.

* أن للأسطورة رموز لحقائق فلسفية دائمة.

* أنها انعكاسات لعملية طبيعية مرة بعد أخرى بصيرورة لا تتوقف.

ثم إن هذه المدارس في مجملها تتبع واحدا من مناهج ستة هي:

* **المنهج اليوهيمري** : الذي يرى الأسطورة قصة لأمجاد أبطال أو فضلاء غابرين.

* **المنهج الطبيعي**: الذي يعتبر أبطال الأساطير ظواهر طبيعية ثم تشخصها في أسطورة اعتبرت بعد ذلك قصة لشخصيات مقدسة.

* **المنهج المجازي**: بمعنى إن الأسطورة قصة مجازية تخفي أعماق معاني الثقافة.

* **المنهج الرمزي**: الذي يرى الأسطورة قصة رمزية تعبر عن فلسفة كاملة لعصرها لذلك يجب دراسة العصور نفسها رموز الأسطورة.

* **المنهج العقلي**: الذي يذهب إلى نشوء الأسطورة نتيجة سوء فهم أو خطأ ارتكبه مجموعة أفراد في تفسيرها أو قراءتهم أو سردهم لرواية أو حادثة أقدم.

* **المنهج التحليلي النفسي**: الذي يحتسب الأسطورة رموزا لرغبات غريزية وانفعالات نفسية.[37]

[37] انظر، سيد القمني، الأسطورة والتراث، ص 33 وما بعدها.